﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٧٩﴾ [النحل: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تمثيل بدليل آخر على كمالِ قدرته سبحانه، بمشهد الطَّيْرِ السّابحِ في جوّ السّماءِ

في مناسبة الآية لما قبلها أربعة أوجه:

الأوّل: لمّا ذكر الله قدرته في خلق الإنسان وتكريمه بمدارك العلم الثّلاثة: السَّمع، والنَّظر، والعقل في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ ناسبَ ذِكْر مدرك الحسِّ بذِكْر النَّظر ومدرك العقل بالتّفكّر في عدم سقوط الطّائر مع ثِقَل جسمه، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

الثاني: لمّا ذكر الله في الآية السّابقة دليلًا على كمالِ قدرته فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ نبّه عباده إلى دليلٍ آخر على كمال قدرته، وحضّ سبحانه على التّفكّر في مظاهر قدرته فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

الثالث: إذا لم يكن في الإنسان نظرٌ يرى ما بداخل كيانه، ويعتبر من أصلِ خلقه كما أفاده قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فليقم نظره على هذا العالم الخارجيّ، وليوجّه مدار نظره على هذا الطّير السّابح في السّماء، وليسأل نفسه: مَن يمسك هذا الطّير أنْ يقع على الأرض؟[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: أصلُ (سخر) يَدُلُّ على احتِقارٍ واسْتِذلالٍ[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 575.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/ 119، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 206.
(3) الخطيب، تفسير القرآن بالقرآن: 7/ 335.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).

وسَخَّرَهُ تَسْخِيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ، وسَخَّرَهُ سُخْرًا وسُخْرِيًّا: كَلَّفَهُ ما لا يُرِيدُ وقَهَرَهُ، والتَّسْخِيرُ: التّذليلُ، وكُلُّ ما ذَلَّ وانْقادَ أو تهيّأ لَكَ عَلَى ما تُرِيدُ فقَدْ سُخِّرَ لَكَ، وتَسْخِيرُ اللّه الأرض وما فيها والشّمسَ والقمرَ والنّجومَ لِلْآدَمِيِّينَ هو إجراؤها على ما يوافقهم وأنْ ينتفعوا بها مختلفَ وجوهِ الانتفاعِ مذلَّلة لهم فضلًا منه تعالى[1]، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المُختصّ قهرًا، فالمُسَخَّرُ هو المُقيّض للفعل، والسُّخْرِيُّ: هو الّذي يقهر فيَتَسَخَّرُ بإرادته[2]، والسُّخَرَةُ أيضًا: الضُّحَكَةُ؛ أيْ: بمعنى: مَنْ يَسْخَرُ مِنْهُ النّاسُ ويَسْتَهْزِؤونَ بِهِ[3].

والمقصود بالتَّسْخِيرِ في الآية: التَّذليلُ[4]، والمعنى: مُذلّلات للطّيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك[5].

2) ﴿جَوِّ﴾: أصلُ (جو) شَيءٌ واحِدٌ يحتَوِي على شَيءٍ مِنْ جَوانِبِهِ، فالجَوُّ جَوُّ السَّماءِ[6]، والجَوُّ: الهَواء، وجوُّ السّماء: الهَواءُ الَّذِي بَيْنَ السَّماءِ والأرض، والجَوُّ والجَوَّة المُنخَفِضُ من الأرض، وأيضًا: كلّ ما اطمأنَّ من الأرْض، وجوُّ كلّ شَيْءٍ بَطْنُه وداخِله[7]، والمقصود بالجَوِّ في الآية: الفَضاءُ الَّذِي بَيْنَ الأرضِ والسَّماءِ[8]، و﴿جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: الهواءُ المتباعد عن الأرض[9].

3) ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾: أصْلُ (مسك) يَدُلُّ عَلَى حَبْسِ الشَّيْءِ أوْ تَحَبُّسِهِ، والإمساكُ: البُخْلُ[10]، وأصلُ إمساكِ الشَّيء: التّعلُّق به وحفظه[11]، والإمساكُ أيضًا: القَبْضُ، والكفُّ والامتِناعُ والاعتصام، يُقالُ: أمسَكْتُ الشَّيْءَ بِيَدِي إمساكًا؛ أيْ: قَبَضْتُهُ، وأمسَكَ عن الطَّعامِ؛ أيْ: كَفَّ عَنْهُ وامتَنَعَ، وتَمَسَّكْتُ بالشّيء واسْتَمسَكت به: اعْتَصَمتُ[12]، والمقصودُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (سخر).
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 402.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سخر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/ 226.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جو).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (جو)، وابن منظور، لسان العرب: (جوا).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(9) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/ 226.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).
(11) الرّاغب، المُفردات، ص: 768، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 4/ 93.
(12) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (مسك).

بالإمســـاك في الآية: الشَّـــدُّ عَنِ التَّفَلُّتِ، والمعنى: ما يمسكهنّ عن السّقوط إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك اللّه لها بأنْ خلق لها أجنحةً وأذنابًا[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مشهدُ الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جوّ السّماءِ، عجيبةٌ أخرى من آثارِ القُدرةِ الإلهيّة

نبَّه اللّهُ إلى دليلٍ آخر على كمالِ قدرته سبحانه فقال مخاطبًا المشركين والنّاس أجمعين: ألم تنظُروا إلى الطُّيورِ الّتي ذلَّلَ اللّهُ لها الطَّيرانَ بأجنِحَتِها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، ما يُمسِكُها في الجوِّ إلّا اللّهُ بقُدرته، إنّ في هذا التَّسخيرِ حيث خلَقَها اللّهُ تعالى خِلقةً تَصلُحُ معها للطَّيرانِ، وخلَقَ هذا الهواءَ اللَّطيفَ بحيث يُمكِنُ الطّيرانُ فيه، مع إمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبْعِها[2] لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللّهِ، وكَمالِ قُدرته، وحِكمته وعِلْمِه لِقَومٍ يقرّون بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسّه حواسّهم[3]، وبما جاءتْ به رسلهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

تَعليلٌ وتَدليلٌ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى ومَزيدِ فضلِهِ ولُطفِهِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ آيةَ ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ عن الآية الّتي قبلها ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ للاستئناف التّعليليّ؛ إذ جاءتْ تعليلًا وتدليلًا على عظيم قدرةِ اللّه وبديعِ صنعه وعلى لطفِه بالمخلوقات، فهذه الآية دليلٌ آخر على كمال قدرته سبحانه، فاقترن ذِكرُ موهبةِ العقلِ والحواسّ الّتي بها تحصيلُ المنافعِ ودفعُ الأضرار مع لفتِ انتباهِ النّاس إلى لطفٍ يشاهدونه في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 236.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 152.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 316، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 152.

تسخير الجوّ للطَّير وخلقها صالحةً كي تُرفرف فيه بدون تعليم مع ضعف بنياتها، ومن أجلِ هذا لم يأتِ بينهما بعاطف، فهي ليست في مضمونها نعمةً على البشر، ولكنَّها آيةٌ على قدرةِ الله تعالى وعلمه[1].

الغرض من الاستفهام ونوعه:

أصحابُ النَّظرِ والعقولِ، يَصلون من عَظيمِ صُنعِ المَخلوقِ إلى الخالقِ

يختلفُ نوعُ الاستفهام تبعًا لقراءةِ الخطاب أو الغَيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

فإنْ كان بقراءةِ الغيبة ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فيكون الاستفهام إنكاريًّا، وذلك لإنكارِ الوقوع فيكون بمعنى النَّفي المُؤكَّد بإقرار السّامع، كأنّه سُئل وأجاب بالنَّفي، ودخلتْ أداة الاستفهام على حرف النَّفي، ونفيُ النَّفي إثبات، والمعنى: لقد رأوا الطَّير مُسخَّرات؛ أيْ: مُذلَّلات سخَّرها الله تعالى لتسيرَ في الجوّ، من غيرِ حاملٍ يحملها، ولا مُمسكٍ يُمسكُها، وهي مع هذا مُسخَّرة لخدمة الإنسان[2]، وظهرتْ بلاغة الاستفهام في نفيِ رؤيتهم مع أنَّهم يرونها فوقهم، لكنْ لَمّا لم يستدلّوا من خلالها على انفرادِ الله تعالى بالإلهيّة، واستحقاقه بالعبادة وحده دون سواه، صاروا كأنَّهم لم يروها[3]، ويكون غرضُ الاستفهام التّوبيخَ والتّقريعَ وإقامة الحُجّة عليهم، فالإنكارُ هنا ليس لنفسِ الرُّؤية؛ بل لِلازمها، وهو التَّفكُّر والاعْتبار[4]، وأمّا على قراءة الخطاب (ألَم تَرَوْا)[5] فيكون الاستفهام تقريرًا لِمَن ينظر إليهنّ، وتعجيبًا من شأنهنّ[6]، ويُقوّي معنى التَّقرير ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4232.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 22.
(5) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 304.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 314.

نكتة التّعبير بجملة ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

تجدّد الرّؤية في تسخير الطّير، موصلٌ إلى العلم بقدرة الخالق

عبّر البيانُ القرآنيّ بـ (الرّؤية) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ دون غيرها من الألفاظ، وذلك لأمور، منها:

أوّلًا: اتّساع دلالة لفظ (الرّؤية) من حيث مادّتها، إذ أصلُ (رأى) يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أوْ بَصِيرَةٍ[1]، ويُطلق لفظ (رأى) على النّظر بالعين، وكذلك على التّفكّر، والرّؤية بالقلب؛ أيْ: بالعقل[2]؛ أيْ: الرّؤية تشمل: إدراك المرئيّ بحاسّة البصر، أو بالفكر والعقل.

ثانيًا: مناسبة السّياق؛ إذِ السّياق هنا في الاستدلال على عظيمِ قدرةِ اللّه وبديعِ صنعه، والحثّ على الاعتبار، وهذا يتطلّب المشاهدة والنّظر والتّفكّر وإعمال العقل للوصول إلى الإقرار بقدرة الخالق سبحانه، والإيمان به، وكلّ هذه المعاني موجودة في لفظ الرّؤية.

أمّا من حيث الصّيغةُ: فقد آثر النّسق القرآنيُّ صيغةَ المضارعِ ﴿يَرَوْاْ﴾؛ لإفادةِ تجدُّدِ مضمونِه وتكرُّره، فمشهد الطّير في جوّ السّماء مشهد مُتكرّر، والمطلوب أن يُجدِّدوا الرُّؤية ويكرِّروها؛ ليستدلّوا على قدرة الخالق والإيمان به، وهذا ما يدعو إليه القرآن.

والرّؤية المقصودة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ هي النّظر المؤدّي إلى الاعتبار، والمعنى: ألم ينظروا نظر تأمّل وتعقّل فيعتبروا، إذن: ليس المقصود بالرّؤية هنا مجرّد الرّؤية البصريّة، وإنّما المُراد النّظر الموصِّل إلى الاعتبار والإيمان باللّه القدير للكافر، وزيادة الإيمان وثباته للمؤمن، ويؤكّد ذلك تعدية فعل الرّؤية بـ﴿إِلَى﴾، يقول الرّاغب: "رأى إذا عُدِّي إلَى مَفعولَيْن اقْتَضَى معْنَى العِلْم، وإذا عُدِّي بـ (إلى) اقْتَضَى معْنَى النَّظَرِ المُؤدِّي إلَى الاعْتِبار"[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 375.

بلاغة توجيه القراءات، في قوله: ﴿يَرَوْاْ﴾:

آيـاتُ اللـهِ على الكافرينَ حجّةٌ وبـرهـانٌ، وهي للمؤمنينَ زيادة إيقان وإيمان

قرأ الجمهور ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بياء الغائب، وقرأ ابن عامر ويعقوب وحمزة وخلف بتاء الخطاب (ألَم تَرَوْا)[1]، وحُجّة مَن قرأ (ألم تَروا) بالتّاء: أنّ المخاطبة لاصقة بقوله قبلها: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فكَذَلِك (ألم تروا)، وحُجّة مَن قرأ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بالياء أن يردّ إلى قوله قبل آيات: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾[2].

فتكون قراءة الغَيْبة على طريقة الالتفات، وذلك إعراضًا عن خطاب المشركين في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ﴾.

أو ليس التفاتًا، باعتبار غَيبة ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في الآية السّابقة: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وحينئذ فالإنكارُ باعتبارِ اندراجهم في العامّة[3]، ولم يُجعل التفاتًا لما عرفت من أنّ عبدة الأصنام أليق بالتّوبيخ المُسْتَفاد من الاسْتفْهام الإنكاريّ[4].

وأمّا القراءة بتاء الخطاب (ألم تروا) إمّا على نفسِ أسلوبِ الآية السّابقة؛ وذلك توبيخًا للمشركين، أو على أنّه خطاب للعامّة؛ أيْ: لجميع المخلوقات المُخاطَبين قبله في قوله: ﴿أَخۡرَجَكُم﴾، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾؛ وإنّما تعرّض له؛ لأنّ الاسْتفْهام الإنكاريّ يقتضي ظاهرًا أنّ المخاطَبين مَن يعبدون مِنْ دونِ اللّه عَلَى طريق الالتفات فأشارَ إلَى أنَ الإنكار باعْتبار اندراجهم تحت العموم، فلا يقتضي تلوين الخطاب[5].

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 304.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 393.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 357.
(4) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 347.
(5) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 347.

علّة تعدية فعل الرُّؤية بـ ﴿إِلَى﴾:

الدّليلُ على إرادة النّظر المُؤدِّي إِلَى الاعْتِبار

يحتمل فعل الرّؤية معنى النّظر بالعين، ويحتمل معنى العلم؛ أي: الرّؤية القلبيّة، ومعنى النّظر البصريّ المؤدّي إلى الاعتبار، ولمّا عدّى البيانُ القرآنيّ فعل الرّؤية بـ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد معنى النَّظَرِ المُؤدِّي إِلَى الاعْتِبار، قال الرّاغب: "(رأى) إذا عدِّي إِلَى مَفْعولَيْن اقْتَضَى معْنَى العِلْم، وإذا عُدِّي بـ (إلى) اقْتَضَى معْنَى النَّظَرِ المُؤدِّي إِلَى الاعْتِبار"[1]، وعلى ذلك يكون فعل ﴿يَرَوْاْ﴾ مُتضمّنًا معنى (ينظروا)[2]، وهذا المعنى المُراد يناسب السّياق الوارد في الاستدلال على عظيم قُدرةِ الله وبديعِ صُنعه، والحثّ على الاعتبار من خلال النّظر بالعين والتفكّر وإعمال العقل للوصول إلى الإقرار بقدرة الخالق سبحانه، والإيمان به.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلطَّيْرِ﴾:

النّظرُ إلى أيّ طيرٍ في السّماءِ فيه استدلالٌ على كمالِ قدرة الخالق

(اللّام) في كلمة ﴿ٱلطَّيْرِ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة تُفيد العموم، فهي تشملُ كلَّ ذي جناح يسبح في الهواء، فالنّظر إلى أيِّ طيرٍ في السّماء يدلُّ على قدرة الله تعالى وعظيم خلقه، وكلمة (طير) إمّا أنَّها مفرد، ومصدره جُعلَ اسمًا لجنسه، أو هي جمعٌ في الأصل على وزن راكب وركب، فيكون المفرد طائرًا، والجمع طيرًا، ويُقال في الجمع أيضًا: طيور وأطيار[3].

سِرُّ التّقييد بالحال، في: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾:

حالُ الطّيرِ المُذلَّلة للطّيرانِ دليلٌ على كمالِ قدرةِ خالقها

كلمةُ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ حالٌ من الطَّير، والمعنى: ألم يروا إلى الطّيرِ حالَ كونها

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 375.
(2) تفسير ابن عرفة: 3/ 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(3) حقّي، روح البيان: 10/ 91، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 439.

مُسخَّرات تطير؟ وتخصيصُ النَّظر إلى حالِ كونها مُذلّلة تطيرُ في جوّ السّماء أكثر حثًّا على إعمال العقل في التّفكُّر في قدرتها على الطّير في السّماء بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة لها، والبحث عن مُمسكها، وهذا فيه دلالة على كمال قدرته سبحانه، ويؤكّد ذلك مجيءُ الحالِ بصيغةِ اسم المفعول؛ ليدلَّ على أنَّ للطَّير مُسخِّرًا، وهو الله ﷻ[1]، فالطَّيرُ مُذلَّلة لأنْ تطيرَ، ومُنقادة لأنْ تسبحَ في الهواء، فطيرانُ هذه المخلوقات وتحليقها في الجوّ، إنّما هو بسببِ تسخيرِ الله هذه الحيوانات لتكون طائرة.

بيانُ العلوِّ، وكمالُ القدرةِ، وعظيمُ التّسخير

سرّ إضافة الجوّ إلى السّماء، في السّياق:

معنى الجَوّ في اللّغةُ: الهَواء، وجوُّ السّماء: الهَواءُ الَّذِي بَيْنَ السَّماءِ والأرض، وجوُّ كلّ شَيْءٍ: بَطْنُه وداخِله[2]، والمُراد بجوّ السّماء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو الفضاء الواسع ما بين السّماء والأرض، والهواء البعيد من الأرض.

وإضافة لفظ ﴿جَوِّ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إضافةٌ بيانيّة؛ لأنّ السّماء كلمة واسعة جدًّا؛ تُطلَق على الفضاء والسَّحاب والمطرِ والسَّقفِ[3]، وفي اللّغة: كلّ ما علا وارتفع ممّا عدا الأرض، فأتت الإضافة هنا لتُبيّن أنّ المُراد هو الفضاء الَّذِي بَيْنَ الأرض والسَّماءِ، ولتدلّ على علوِّ هذا الفراغ السّماويّ؛ لأنّه يبدو مُتّصلًا بالقبّة الزّرقاء في ما يخال للنّاظر[4]، وفي هذه الإضافة إظهارٌ لكمالِ قدرته سبحانه لأنّ التّسخير في جوّ السّماء محضُ الإلهيّة.

وكذلك هذه الإضافة تُعطي مدلولًا مُهمًّا، وهو أنَّ الجوَّ الَّذي هو الهواء بنسبة واحدة مع السّماء، فالهواء هو العامل الأساس في ثبات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 575، والهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 139.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (جو)، وابن منظور، لسان العرب: (جوا).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 317.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.

الأشياء في الكون، وإلّا لو كان متفاوتًا ومختلفًا من مكان إلى مكان في السّماء لما استطاعت الطّير أنْ تسبحَ في السّماء، وأنْ تتحكّم بنفسها فيها[1].

سرّ التّعبيرِ بلفظ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾، وأثره في المعنى:

التّعبيرُ بالتّسخيرِ، مبالغةٌ في إظهارِ قدرة الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ التّسخيرِ دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾؛ مبالغةً في إظهار قدرة الله، من حيث إنّ معنى التّسخيرِ جعلُ الشّيء مُنقادًا لآخرَ يتصرَّفُ فيه كيفَ يشاءُ؛ كتسخير البحر والفُلك والدّوابِّ للإنسان، والواقع ههنا تسخيرُ الهواء للطّير لتطيرَ فيه كيف تشاء؛ فكان مقتضى طبيعةِ الطير السّقوطَ، فسخّرها الله تعالى للطّيران، وفيه تنبيه على أنّ الطّيران ليس مقتضى طبعِ الطّير؛ بل ذلك بتسخير الله تعالى لها[2]، وبسبب ما أوجد لها من حواسَّ ساعدتها على ذلك، كالأجنحة وغيرها[3].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

دعوة الناس إلى التّفكّر في سماءٍ يألفونها، إقامةٌ للحجّة عليهم

(ال) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد، والعهد فيها ذهنيٌّ؛ فهي سماء معهودة عندهم، فالله سبحانه يخاطب خلقه، ويأمرهم أنْ ينظروا إلى الطّير في جوّ هذه السَّماء، وهي الجوُّ المرتفع فوقهم ليروا كيف يمسك الله الطَّير فيها، ويمنعها من السُّقوط، وفي هذه اللّام العهديّة إشارةٌ إلى أنّ التّفكُّرَ في الطّير المُذلّلة في جوّ السّماء هو في مقدور كلّ إنسان يملكُ بصرًا وعقلًا، ودعوةٌ له إلى النّظرِ والتّدبُّر؛ إذ هو في مقدوره، وفي هذا إقامة للحُجّة عليه.

نكتة فصل قوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

بين الاستئنافِ الّذي يُبيّن قدرةَ اللهِ، والحالِ الّذي يؤكّد الحفظ والقدرة

فصَل البيانُ القرآنيّ هذه الجملة عن سابقتها ولم يأتِ بينهما بعاطف؛ لأحد أمرين:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8120.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(3) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 207.

إمّا لأنَّها جاءت مُستأنفة[1] استئنافًا بيانيًّا؛ إذ بين الجملتيْن شبه كمال اتّصال، فكأنّ سائلًا سأل: كيف لا تقع هذه الطّير ومَن يمسكها؟ فأُجيب: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، والغرض من هذا الاستئناف الإقرارُ بأنّ الله وحده القادر على أنْ يمسك الطّير من أن تقع أثناء طيرانها فيؤمنوا به.

وإمّا لأنّ بينهما اتّصالًا عضويًّا إعرابيًّا؛ حيث جاءتْ في محلّ نصب حال ثانية من الضّمير المُستتر في مُسَخَّراتٍ أو من الطَّيْرِ[2]، وهذا فيه توكيد لحفظهنّ عن السُّقوط لطفًا منه، وتوكيد قدرة الله في ذلك.

سرّ مجيء ضمائر التّأنيث في ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ و﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾:

طَـيرٌ ضَعيفةٌ لا حِيلةَ لها، وربٌّ قويٌّ قادرٌ يُمسِكُها

الأصل في اللّغة أنَّ الطَّير يُؤنَّث ويُذكَّر، والتَّأنيث أكثر وأفصح، والواحد طائر، والأنثى طائرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: 19][3]، وجاء النَّصُّ القرآنيُّ في اللّفظتيْن: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ و﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾ بالتّأنيث لنكتة بلاغيّة مُهمّة، وهي الإشارةُ إلى ضعفها في أنفسها لولا تقوية الله لها[4]، ومع ضعفها جاء وصفُها بجمع الجمع ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾[5]؛ ليدُلَّ على أنَّه مهما كثر عددُها ومهما كان مستوى ضعفِها فإنَّ اللّهَ يُمسكها ويحفظها.

بلاغة أسلوب القصر ونوعه في السّياق:

اللـهُ وحـده يُـمسِكُ الطَّيرَ لا يُشاركُه في إمساكه أحَدٌ

جاء البيانُ الإلهيّ في هذه الجملة ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بأسلوب القصر؛ ليعطي معنى الحصر والاختصاص بالله ﷻ وأنَّه لا يشاركه في إمساك الطَّير أحدٌ، وهذا القصر حقيقيٌّ، وقصر صفةٍ

(1) العُكْبَريّ، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 130.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 358، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 130، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(3) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 5/ 179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 252.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 135.

على موصوف؛ لأنَّ المقصور اختصَّ بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، ولا يتعدّاه إلى غيره أصلًا، وهذا من ضروب الإيجاز؛ إذ إنَّ جملة القصر في مقام جملتيْن، فقوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تعادل: الإمساك لله، وليس لأحدٍ غيرِه أنْ يمسكها[1].

نكتة التّعبير بالإمساكِ مادّةً وصيغةً:

صـــورةُ حفظ الله للطّير من التّفلّت، دليلٌ على كمالِ قدرته

عبّر البيان القرآنيُّ بلفظ ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالقبض مثلًا، فلم يَقُلْ: (ويقبضهنّ)، إذ أصل الإمساك في اللّغة يدلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أوْ تَحَبُّسِهِ[2]، ويكون للحفظ وعدم التَّفلُّت، مما يتناسب مع سياق إمساك الطّير في جوّ السّماء وحفظه من التّفلّت والوقوع لطفًا وحماية له، ولا يناسبه القبض الّذي هو جمع الشّيء في قبضة اليد بشدّة لتملّك.

كما أنَّ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾ التّي تُفيد معنى التّجدّد والاستمرار والتّصوير تتناسب أيضًا مع السّياق الّذي يخبر بكمال قدرته سبحانه، وبأنّ إمساكَ الله تعالى للطّير صورةٌ مستمرةٌ متجدّدةٌ، لا تتخلّف في وقتٍ من الأوقات.

نوع الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾:

حـصـرٌ يـؤكّـدُ حفظَ اللهِ للطّير

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أداةُ حصر، ونوعُ الاستثناء فيها مفرّغٌ؛ لأنّ ما قبله مفتقرٌ إليه، فقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل للفعل ﴿يُمْسِكُهُنَّ﴾، والمستثنى منه محذوف، والتّقدير: وما يمسكهنّ من أحدٍ إلّا الله، وقد أفادَ الحصر والتّأكيد على حفظِ الله للطير.

بلاغة المجاز في التّعبير بالإمساك:

الإمساك هو الشَّدُّ عَنِ التَّفَلُّتِ، والمعنى: ما يمسكهنّ عن السّقوط

(1) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).

إلى الأرض من دون إرادتها، وإمساك الله لها بأنْ خلق لها أجنحةً وأذنابًا، وجعل هذه الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخفّ من عظام الدّوابّ بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفَّت خفّة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأن يخرق ما تحتها من الهواء إلّا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوّست أعصاب أصلابها عند إرادتها النّزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء، فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثمّ تقع متى شاءت أو كلَّت. فَلَوْلا أنَّ اللَّه خَلَقَها عَلى تِلْكَ الحالَةِ؛ لَما اسْتَمْسَكَتْ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ إمْساكًا عَلى وجْهِ الِاسْتِعارَةِ، وهو لُطْفٌ بِها[1].

إسنادُ إمساك الطّير إلى الله، مجازٌ عن حفظِها ورعايتِها واللُّطفِ بها

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾:

فصل البيان القرآنيّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ عمّا قبله، ولم يأتِ بينهما بعاطف، لكونها جاءتْ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّ الإنكار على المشركين عدم الانتفاع بما يرونه من الدّلائل يُثير سؤالًا في نفس السّامع: أكان عدم الانتفاع بدلالة رؤية الطَّير عامًّا في كلِّ البشر مؤمنِهم وكافرِهم؟ فيكون الجواب بأنَّ المؤمنين يستدلّون من ذلك بدلالات كثيرة[2]، ويتَّعظون بما يرون فجاء الفصل لشبه كمال الاتّصال؛ لأنَّ الجملة الثّانية وقعت جوابًا نتجَ عن الجملةِ الأولى فلم تُعطَف على الأولى[3]، فالجملة الثّانية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جاءت مُستأنَفة تفيد تعليلَ ما قبلها[4]، من الأمر بالنّظر والتّفكّر في حال هذه الطّير لأنّ في ذلك آياتٍ تؤدّي إلى الإيمان، قال البقاعيّ: "ثم نبّههم على ما في ذلك من الحكم بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾"[5].

الاعتبار والانتفاع بآياتِ الله هو شأنُ المؤمنين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 235.
(3) القدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 159.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/ 23.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 224.

بلاغة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

اجتماعُ المؤكّداتِ إنْباءٌ بِأنَّ المنتفِعَ مِن الآياتِ إنَّما هُم المؤمنونَ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، حيث ساق النَّصُّ القرآنيُّ مجموعةً من المُؤكِّدات ليرسّخ المعنى الّذي يريد التَّعبير عنه، وهذه المُؤكّدات هي:

الأوّل: ﴿إِنَّ﴾ في بداية الجملة الّتي تفيد توكيد الخبر، وهي مناسبة لاستفهام الإنكار على الّذين لم يروا تلك الآيات، فأُكِّدتِ الجملةُ الدّالَّةُ على انتفاع المؤمنين بتلك الدّلالة؛ لأنَّ الكلام موجّه للّذين لم يهتدوا بتلك الدّلالة، فهم بمنزلة مَن يُنكر أنّ في ذلك دلالة للمؤمنين؛ لأنّ المشركين ينظرون بمرآة أنفسهم[1].

الثّاني: التَّوكيدُ بالجملةِ الاسميّة الَّتي تَدلُّ على الثَّباتِ.

الثّالث: لام الابتداء الّتي دخلت على اسم إنَّ ﴿لَآيَةً﴾ والّتي تفيد التّأكيد[2].

الرّابع: التّوكيد بتقديم المُسنَد ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المُسنَد إليه ﴿لَآيَةً﴾ ممّا يفيد القصر والاختصاص.

الخامس: التَّوكيدُ بالاستئنافِ البيانيِّ في الجملة كلّها الّذي يقتضي تأكيدَ الحكم.

السّادس: مجيءُ صفةِ القوم بأنّهم يؤمنون بالفعل المضارع، وهذا يفيد الاستمراريّة والمداومة والتّأكيد على ملازمة وصف الإيمان لهم.

دلالة التّعبير بحرف الظّرفية، بقوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

التّعبيرُ بالظّرفيّة تأكيدٌ لتغلغلِ الإيمان وتمكّنه في قلوب المؤمنين

عبّر القرآن بالظّرفيّة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى تمكّن هذه الآياتِ الدّالّة على كمالِ قدرة اللّه تعالى، في قلوب المؤمنين، وأنّ اللّه سبحانه هو القادر وحده على إمساكِ الطّير لا أحد سواه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

قدَّم النَّصُّ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ للاهتمام بما ذَكره من دلائل القدرة ممّا اشتملت عليه هذه الآية والّتي قبلها[1]، من الإخراجِ من بطونِ الأمّهات، وجعلِ السّمعِ والبصرِ وتسخيرِ الطّيرِ في جوّ السّماء.

تقديمٌ فيه مزيدُ اهتمامٍ بدلائل القدرة الّتي سبق ذِكْرها

غرض اسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية:

استعملَ البيانُ القرآنيّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ حيث اختار ما يُشار به إلى البعيد مع أنّ المُشار إليه قريب؛ فالمشارُ إليه ما اشتملت عليه هذه الآية والّتي قبلها[2]، لعدّة حِكَم؛ منها:

إشارةٌ بالبعيدِ للقريبِ تَنبيهًا على علوِّ شأنِ دلائل قدرته الّتي سبقت

أنّ المنظور إليه فوقهم، كما دلّ عليه قوله في سورة المُلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [الملك: 19]. فإذا طار الطير وعلا في جوِّ السَّماء؛ فإنَّه يصير بعيدًا عن الرّائي، فاحتاج إلى أنْ يُخاطَب باسم الإشارة للبعيد.

وأنَّ فيه تعظيمًا لهذه الآيات، وتفخيمًا لها، وإظهارًا لعلوِّ شأن هذه الآيات الّتي ينظر إليها المؤمنون ورفعة مكانتها، وجعلها بعيدةَ المنزلة.

وأنّ النّظر إلى الطَّير في جوّ السَّماء يترتّب عليه آيات كثيرة، بعضها قريب وبعضها بعيد، فاحتاج اسم الإشارة للبعيد لكي ينطلق المؤمنون بنظرهم وفكرهم من القريب إلى البعيد.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

في اللّامِ مزيدُ تأكيدٍ لعِظَمِ دلائل قدرة الله

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لام الابتداء، دخلت على اسم إنَّ لتُفيد التّوكيد، ولتكون مؤكّدًا من المُؤكِّدات الّتي جاءتْ في تذييل هذه الآية[3]، والسّبب في دخول اللّامِ على اسم ﴿إِنَّ﴾ حيلولة الخبر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 439.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 439.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.

المُقدّر بينه وبينها، "إذ لو كان يليها ما جاز دخولها، وهي لام التّوكيد، فصار في الجملة حرفا تأكيد: (إنّ) و(اللّام)"[1]، وفيها مزيدُ تأكيدٍ لعظمِ دلائل قدرة الله.

الغرض من تنكير ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

آيـــاتُ الـلـهِ عـظيـمةٌ كـثيرةٌ واضحةٌ مفخَّمةٌ

جاءت كلمة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ بالتّنكير، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ تنبيهًا إلى كثرتها، وتعظيمًا وتفخيمًا لها كمًّا وكيفًا[2]، فمن أغراض تنكير المُسنَد إليه تعظيمه، وأنّه بلغ في رفعة الشّأن حدًّا فوق مُتناوَل المدارك[3].

نكتة جمع ﴿لَآيَٰتٍ﴾، في سياق الآية:

في تسخير الطّير آيـاتٌ مختلفة مـتـعـدّدة، تـدلّ عـلى قـدرة الخالق

جمع البيان القرآنيّ الآيات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (إنّ في ذلك لآية)؛ لأنّ في الطّير دلائل مختلفة: من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطّير مناسبة للطّيران في الهواء، فجعلها خفيفة، وخلقَ الإلهام للطّير بأنْ يسبحَ في الجوّ، وبأنْ لا يسقطَ إلى الأرض إلّا بإرادته[4].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

الآيات واضحاتٌ جـلّـيـاتٌ لـكـلّ العـقـلاء نافعةٌ للمؤمنينَ

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حرف جرّ، وهي لامُ الأجْل، بمعنى (كي) أو (لأجل)، والمعلّل هو ما في مدلول الآيات من مضمَّن معنى الدّلالة والنّفع، فهذه الآياتُ لكلّ العقلاء، إلّا أنّ المُنتفعين بها هم المؤمنون مع ظهورها لغيرهم[5]؛ أيْ إنّ الله ذكر هذا الدّليل على قدرته لأجل التّفكّر والاعتبار والإيمان به سبحانه فمَن لم ينتفع بالآيات فليس من أهل التّفكّر.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 83.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 449، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 874.
(3) عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 42.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 506، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/ 358.

نكتة التّعبير بـ﴿لِّقَوۡمٍ﴾:

سجيّةُ القومِ المؤمنين، انتفاعُهم بالحقِّ إذا بَدتْ دلائلُهُ

أقحم النَّصُّ القرآنيُّ كلمة ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ للدَّلالة على أنَّهم جماعة تتضافر على الحقِّ وتطلبه، وتتهدّاه، وتتعرّفه، ومن كان هذا شأنهم فقد عُرِفوا به، وتمكَّن منهم، وصار سجيّةً حتّى كأنّهم يجمعهم هذا الوصف، ويؤمنون بالحقّ إذا بدتْ دلائله، وقامت براهينه[1]، ولهذا عبَّر بقوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ ولم يقل: (المؤمنين)، أو (الّذين آمنوا)، للإيماء إلى أنَّ الإيمانَ عندهم كالسّجيّة لهم والعادة الرّاسخة الّتي تقوم بها قوميّتهم[2].

الغرض من تنكير ﴿لِّقَوۡمٍ﴾:

تنكيرُ القومِ المؤمنين المُعتبرين بآيات اللهِ، تفخيمٌ وتشريفٌ لهم

نكّر البيان الإلهيّ لفظ ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ مدحًا لهم وتعظيمًا لشأنهم[3]، ولإفادةِ معنى التّفخيم والتّشريف لهم، وذلك في سياق المدح للمُعتبِرين بآيات الله الدّالّة على قدرته سبحانه؛ أيْ: إنَّ في تلك الآيات لدلائل دالّة على قدرة الله تعالى لأهل التّفكّر الّذين يُعملون عقولهم، وفيهم قوّة المحاولة لِما يريدون من الاستمرار في التّفكّر والوصول إلى الحقائق، وهم ليسوا معروفين بأعيانهم؛ بل بوصفهم وهو الإيمان، وهذا ينسحب على كلّ زمان وكلّ مكان.

نكتة تخصيص المؤمنين بالذّكر دون غيرهم:

المؤمنون هم أهلُ الاعتبارِ والانتفاعِ بآيات الله، والمُصدّقون بأخباره

خصّ البيانُ القرآنيّ المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٗ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ مع أنّ الخطاب في بداية الآية إمّا للنّاس عامّة، أو للمشركين؛ وذلك لأنّ المؤمنين هم أهلُ الاعتبار والانتفاع بآيات الله الدّالّة على عظيمِ قدرته سبحانه، فقد ألفوا إعمال تفكيرهم في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 197.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 356.

الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهلِ الكفر الّذين طُبعوا على النّفرة من الاقتداء بالنّاصحين، وعلى مكابرة الحقّ[1]، "ولتضمّنِ الآيةِ أنّ المُسَخِّرَ والمُمسِكَ لها هو الله، فهو إخبارٌ منه تعالى ما يُصَدِّقُ به إلّا المؤمن"[2].

دلالة التّعبير بالمضارعِ في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

الآيات للمؤمنينَ، يتجدَّدُ بها إيمانُهم ويَزدادُ

التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يعني من شأنهم وحالهم الإيمانُ دائمًا[3]، وأنَّ إيمانهم أمرٌ مستمرٌّ مُتجدّد، والتّعبير بالمضارع يشير إلى أن الإيمان مقصود به أنّه مرجوٌّ منهم؛ أيْ: إنّ في ذلك لآيات للمؤمنين ولمَن يُرجى منهم الإيمان عند النّظر إلى الطّير في جوّ السّماء والتّفكّر في قدرته سبحانه وأنّه هو الّذي يُمسكهنّ.

بلاغةُ المتشابه اللّفظيّ بين آية النّحل: (79) وآية المُلك (19):

من أسلوبِ القرآنِ وبلاغته، مراعاةُ السّياقِ في اختيارِ ما يناسبه من ألفاظٍ وتراكيب

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: 19]: اختارَ البيانُ القرآنيّ التّعبيرَ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في سورة النّحل فقال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، بينما عبّر باسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ في سورة الملك بقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ [الملك: 19]؛ وذلك مراعاةً لسياقِ الآيتيْن، فالسّياقُ في سورة النّحل في التّوحيد، والتّدليلِ على قدرةِ الله، والنّهي عن الشِّرك وتهديدِ المشركين، فناسبَ ذكر اسم الجلالة الّذي يبعثُ في النّفس المهابة، ولذا تكرّر ذكرُ الاسم الجليل في سورة النّحل أربعًا وثمانين مرّةً، ولم يَرِدْ اسم (الرّحمن) فيها ولا مرّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 236.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 576.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4233.

أمّا في سورة المُلك؛ فالسِّياق في ذِكر مظاهرِ رحمته سبحانه؛ فناسبَ ذلك ذِكْر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: 19]، وقد ورد في السّورة اسم (الرّحمن) أربع مرّات، واسم (اللّه) ثلاث مرّات[1].

وكذلك جاء في آية النَّحل لفظ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مع اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾، و﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ اسم مفعول، والفاعل هو اللّه سبحانه، والتّسخيرُ فيه قهرٌ، وهذا يتناسبُ مع لفظ الجلالة (اللّه) الّذي فيه معنى القهر والقوّة، والّذي يدلّ على الألوهيّة والتّسخير والتّصرّف، وهذه هي عادة القرآن عند الحديث عن التّسخير أنْ يأتيَ مقترنًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾، ولم يرد مقترنًا مع اسم (الرّحمن)[2].

أمّا آية المُلك فقد جاء قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: 19] مع اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: 19]، فصافّات اسم فاعل، وفاعله الطّير، فنُسب الفعل هنا إلى الطّير؛ وأنّها هي الّتي تصفّ وتقبضُ، وهاتان حالتان يستريح إليهما الطّائر، فتارةً يصفُّ جناحيْه كأنَّه لا حركة به، وتارةً يقبضهما إلى جنبيْه حتّى يلزقهما بهما، ثمّ يبسطهما ويقبضهما موالاةً بسرعة كما يفعل السّابح، فناسب هذا الإنعام منه ﷻ ورود اسمه الرّحمن، ولم يرد ذِكْر هذه الاستراحة في آية النّحل[3].

وجاء اختلافُ تذييلِ الآيتيْن مناسبًا للسّياق أيضًا؛ ففي آية النّحل لمّا ذكر اللّه آياتٍ تدلُّ على ألوهيّته وقدرته سبحانه وتدعو إلى الإيمان به ناسبَ تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[4]، وأمّا في آية المُلك لمّا ذكر حركة الطّير وأنّها صافّات وقابضات لأجنحتهنّ؛ احتاج ذلك أن يكون تذييل الآية قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك: 19].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإمساك والقبض:

أصل الإمساك في اللّغة يدلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أوْ تَحَبُّسِهِ[5]، بينما القبضُ في أصله

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 831.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص 831، والقدوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النّحل من دقائق المعاني، ص: 159.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 306.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).

الإمـــســـاك حـبـس الـشَّيء وعـدم إطلاقه، والـقـبـض جمع الـــكـــفّ عـلى الشّيء وأخذه

يدلّ على شَيْءٍ مَأْخوذٍ، وتَجَمُّعٍ في شَيْءٍ[1]، فالإمساك أعمّ من القبض، إذ هو أخذُ الشّيء وحبسه في حيّز ما، بينما القَبْضُ أخصّ من الإمساك؛ إذ القبضُ هو "جمعُ الكفِّ على الشّيء بشدةٍ إمساكًا له"[2]، كما أن الإمساك غالبًا يكون للحفظ وعدم التّفلُّت، والقبض غالبًا يكون للأخذ والمِلك، يُقال: صار الشَّيء في قبضتك؛ أيْ: في مِلكك[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبض).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قبض).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قبض).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»